آثارُ التَّوَجُّهِ الى صِفاتِ المُتَكَلِّمِ في تَفْسيرِ القُرآنِ

الشيخ الدكتور عبد الهادي البغدادي

جامعـــة المصطفى العالمية

ملخص البحث

من القواعد المهمة في تفسير القرآن هو التوجه الى صفات المتكلم – وهو الله تعالى ذكره –عند عملية تفسير وفهم الآيات القرآنية، وتترتب على مراعاة هذه القاعدة آثار مهمة، منها تفسير الحروف والمفردات والتراكيب القرآنية بما يناسب الحكمة والعلم والدقة التي يتصف بها المتكلم والـمُنزل لهذا القرآن سبحانه وتعالى، ومنها السعي لاستخراج المدلولات الالتزامية للآيات والاخذ بها، ومنها جواز الأخذ بأكثر من معنى، ومنها عدم حمل الآيات القرآنية على الوجوه الادبية الشاذة أو الضعيفة، ومنها عدم وجود التناقض والاختلاف في القرآن، ومنها عدم وجود المطالب المخالفة للواقع في القرآن الكريم.

المقدمـــــة:

إنّ مما انعم به الله تعالى على البشرية جمعـــاء، إنزال الكتاب المقدس وهو القرآن الكريـــم على النبي الأعظمﷺ، فهو يحمل رسالة هداية وإرشاد لجميع الناس نحو التوحيد الإلهي، وهو دستور متكامل يتضمن رؤية كونية مطابقة للفطرة، وكيان أخلاقي سامٍ وتشريعات عقلائية منسجمة، لكن الانتفاع بمعارفه وإتباع تعاليمه يتوقف على عملية فهمه بطبيعة الحال، وهنا تكمن أهمية المسألة، فمن المسلّم به هو ضرورة وجود قواعد تفسيرية تكون بمثابة الأُطر والضوابط لعملية التفسير، لكي لا تكون مسألـة اعتباطية وقضية عشوائيـــة، وقد نشأت هذه القواعد من عدة مباني وأسس منقحة ومستدلّة في محلها، ومن أهم تلك القواعد لزوم اخذ معرفة صفات المتكلّم بنظر الاعتبار في عملية التفسير، وهي قاعدة تبتني على أنّ القرآن هو كلام الله تعالى من حيث اللفظ ومن حيث المحتوى معاً، بحيث يصح القول أن الله تعالى هو المتكلّم والمؤلف لهذا القرآن، كما تم التصريح به في الايات الكريمة... وقد اجمع المتكلمون على اثبات صفة الكلام له تعالى لا بمعنى صدور الصوت بل على النحو الذي يناسبه تعالى ذكره كخلقه للكلمات والالفاظ او غير ذلك مما هو مفصل في علم الكلام، فيكون لمعرفته وصفاته دورا في فهم كلامه، وتوجب هذه القاعدة عدم التعامل مع القرآن الكريم تعاملا عاديا كما هو الحال في الكتب الأخرى المؤلفة من قبل العلماء أو المتخصصين، صحيح أنّ طريقة الفهم هي ذاتها ولم يأت القرآن بطريقة مبتدعة وجديدة في فهم الكلام، لكن يبقى الكلام الإلهي منفردا في أسلوبه الخاص وطريقتـــه المميزة ومقتضيات صدوره من عالم مطلق بأساليب ودقائق اللغة والمحاورات العقلائية، ومن حكيم بذاته، لا يصدر منه إلاّ الحق والفصل في القول، وهو الله سبحانه وتعالى.

وبناء على ذلك فالقرآن الكريم يختلف عن الكلام البشري العادي من حيث اشتمال الأخير على مسامحات عرفية أو بناء على الغالب أو تعميم العلة أو تأثر بالثقافات أو التساهل في الأحكام أو

المجاراة أو التشبيه غير الواقعي أو... فينبغي بذل تمام الجهد والدقة في فهم معانيه ومداليله المطابقية والالتزامية البيّنة وغير البيّنة، الظاهرة والباطنة، واجتناب التفسير السطحي للآيات، وادراك فلسفة تكرار الآيات أو الجمل أو المفردات، واختيار الكلمات والنكات المترتبة عليها، وعدم التفسير بما يلازم وجود التناقض أو الاختلاف أو الباطل وخلاف الواقع مطلقاً حتى على صعيد التمثيل والتشبيه فإنّه لا ياتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وتترتب آثار كثيرة على هذه المسألة الجديرة بالبحث والتحقيق، وما نريد تسليط الضوء عليه في هذا البحث هو بيان واستخراج الآثار المهمة التي تترتب على هذه القاعدة الثابتة في محلها.

بيان المسالة:

تتناول دراستنا هذه مسألة مهمة وهي: آثار معرفة صفات المتكلّم والتوجه اليها في تفسير القرآن، فسؤالنا في الحقيقة يدور حول: الآثار التي تترتب على معرفة صفات المتكلّم وأخذها بنظر الاعتبار عند عملية تفسير القرآن؟.

حيث انّ كلام المتكلّم انما ينسجم مع ذاته ويسانخ صفاته؛ ولذا يختلف الكلام الصادر من الانسان العادي المحدود مع الكلام الصادر من الذات الالهية الحكيمة والمحيطة علما بجميع الامور والواقعيات وخصوصيات الالفاظ والدلالات، فلا يجوز التعامل مع القرآن الكريم على حد النصوص العادية البشرية، وتترتب على ذلك آثار ونتائج مهمة على مستوى تفسير القرآن الكريم.

كما ان المقصود من صفات المتكلّم هنا انما هي صفات المتكلّم بما هو متكلّم لا صفاته بما هو موضوع الكلام، اذ قد تقع الذات الإلهية المقدسة نفسها موضوعا للكلام في القرآن الكريم، كأن يُتعرض لاوصافه الذاتية أو الفعلية أو غير ذلك من الشؤون التي تخصه، كأن يقال: يد الله فوق ايديهم، أو اينما تولوا فثم وجه الله، فكل ذلك لابد ان يُفهم بملاحظة صفاته، فعندما نعرف بالدليل العقلي القطعي انه منزه عن الجسم المادي فسوف نفهم الكلام الأول والثاني بشكل مختلف، بتوسط قرينة صفات موضوع الكلام،

وهكذا لو كان الحديث عن اي موضوع آخر فلابد عند التفسير من ملاحظة الصفات الخارجية لذلك الموضوع، لكن هذه قضية أُخرى لا نقصدها نحن هنا من بحثنا هذا، بل مقصودنا صفات المتكلّم وهو الله تعالى بما هو متكلّم لا بما هو موضوع للكلام، فالبحث عن الصفات التي تكون ثابتة للمتكلم والتي لها تأثير في فهم كلامه.

الأسئلة:

السؤال الأساس: ما هي الاثار التي تترتب على التوجه الى صفات المتكلم في تفسير القران؟.

الأسئلة الفرعية:

١- كيف ينبغي ان تفسّر الايات والمفردات والحروف بما ينسجم مع صفات المتكلم؟.

٢- ما هو الموقف تجاه المداليل الإلتزامية للآيات القرآنية؟.

٣- كيف نتعامل مع قضية وجود أكثر من معنى للآيات القرآنية؟.

٤- ما مدى إمكانية الحمل على الوجوه الادبية الشاذة أو الضعيفة في تفسير الآيات القرآنية؟.

٥- كيف يُتعامل مع موهم التناقض والاختلاف في القرآن؟.

الأهداف:

١- بيان أهمية قاعدة لزوم التوجه إلى صفات المتكلم في تفسير القرآن.

٢- بيان الآثار المهمة التي تترتب على معرفة صفات المتكلم والاعتماد عليها عند عملية التفسير.

٣- بيان نماذج وأمثلة قرآنية لتلك الآثار.

بسم الله الرحمن الرحيم

تعدّ مسألة التوجه إلى الصفات الإلهية في عملية تفسير القرآن، وفهم المراد الجدي لله تعالى قاعدة اساسية في فهم القرآن، ومن آثارها عدم التعامل مع القرآن الكريم معاملة الكتاب البشري العادي، وبذل الجهد والتدقيق التامين من اجل فهم دلالات القرآن الكريم على جميع مستوياتها لاستخراج اللوازم وكل ما يشتمل عليه الكلام من الاشارات والمعطيات المعرفية؛ اذ يجسد ذلك بقاء القرآن واستمراريته مدى العصور ومواكبته لمختلف الأزمان،

ومن الضروري بيان النماذج لهذا التأثير وعرض أمثلة تطبيقيـــة لهذه القاعدة تكشف عن تساهل بعض المفسرين في العملية التفسيرية لكتاب الله تعالى، مما يشكل جرس إنذار وبارقة تنبيه لاجتناب التعـــامل السطحي مع القرآن الحكيم وكتاب الله المجيد الذي ألّفه العالم المطلق بدقائق الأمور والحكيم بالذات تقدست أسماؤه.

ويمكن التعرض لتلك الآثار على شكل مباحث كالتالي:

المبحث الأول:

تفسير المفردات والحروف بما ينسجم مع الحكمة والدقة.

مما يترتب على الأخذ بصفـــات المتكلّم عند تفسير القـــرآن هو لزوم تفسير الآيات والمفردات القرآنية بنحو ينسجم مع الصفات الإلهية من الحكمة والدقة، فانّ كلام المتكلّم انما هو ترجمه لافكاره وانعكاس لفهمه عن الواقعيات الخارجية؛ ولذا لا يخلو كلام البشر -مهما كان بليغا-من الاخفاقات كالمسامحات والاهمال وعدم الدقة وعدم الوضوح وعدم الاجابة على قدر السؤال، وتنزيل الغالب منزلة الدائم، والنادر منزلة المعدوم والتكرار و... ؛ وذلك باعتبار محدودية علمه، بخلاف كلام الله تعالى فهو خال من تلك الامور؛ لاحاطته سبحانه وتعالى بالواقعيات الوجودية من جهة، وعلمه التام باوضاع الالفاظ ومناسبات الدلالة والقوالب اللغوية التي هي الوسائل لنقل صحيح ودقيق لفكرة معينة.

وهنا كلام مرتبط بالمقام للعلامـــة الطبـــاطبائي في تفسيره الميزان، ننقله بنصه لأهميته، قال: «وكثير من المفسرين وإن تنبهوا على اشتمال الآية -يعني قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ -على الملحمة وأطالوا في البحث عمّن تنطبق عليه الآية مصداقاً غير أنّهم تساهلوا في تفسير مفرداتها، فلم يعطوا ما ذُكر فيها من الأوصاف حق معناها، فآل الأمر إلى معاملتهم كلام الله سبحانه معاملة كلام غيره، وتجويز وقوع المسامحات

والمساهلات العرفية فيه كما في غيره[1].

ويمكننا الحديث عن هذه النقطة اكثر اذا ما قسمنا الحديث فيها إلى جهات مختلفة تحت عدة عناوين، مع ذكر مثال لكل منها، فنقول:

أولاً: التمييز بين معاني الحروف:

ان الحروف لها معاني معينة كباقي الكلمات في اللغة بحسب وضعها، ومنها ما وضع لمعاني متعددة على نحو الاشتراك اللفظي، ومن القرائن التي تُعين على تحديد المعنى المراد من بين سائر المعاني هو صفات المتكلم، ففي بعض الاحيان يتحدد معنى الحرف من خلال التوجه إلى الصفات الإلهية، أو قد يستعمل حرف معين في تركيب خاص، ويستعمل حرف آخر في نفس ذلك التركيب، وليس ذلك الا لنكتة استوجبته.

المثال الاول:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[سورة البقرة: ١٨٥]، وتدل الاية هنا على انّ القرآن هو هدى لجميع الناس، لكن نرى في آيات أُخرى دلالة على اختصاص هدى القرآن بفئات معينة من الناس دون الجميع، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[سورة البقرة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[سورة لقمان: ٢ -٣]، وغيرهما[2]، لكننا نقول: حيث ان الله تعالى حكيم وعالم مطلق ننفي عنه التحدّث بالتناقض والاختلاف، فكما ان قوله في الاية الاولى بان القرآن هداية للجميع حق فكذا قوله بان القرآن هداية للمتقين حق ايضاً، فكان ذلك بتأثيراللام التي تحمل عدة معاني، فنستنتج من خلال التوجه إلى صفات المتكلّم ان حرف اللام هنا لم يرد منه معنى واحد قطعاً، بل اريد منه معنيين بحيث يمكن الجمع بينهما، والتدقيق في حرف اللام الوارد في الآيات يبين لنا حقيقة الحال، فاللام في الاية الاولى غائية وتسمى لام الغاية، واللام في سائر الآيات للعاقبة وتسمى لام العاقبة، فمعنى الاية الاولى ان الهدف والغاية من نزول القرآن هو هداية البشر جميعاً، لكن سائر الآيات تبيّن ان اللذين ينتفعون بهذا القرآن في

عاقبة الامر هم المتقون[٣].

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [سورة التحريم: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾[سورة النساء: ٢٧]، فنرى ان الاية الاولى وجملة من الآيات التي على نسقها[٤] تعدّت التوبة فيها بالحرف (الى)، وفي الاية الثانية وما كان على شاكلتها من الآيات[٥] تعدّت التوبة فيها بالحرف(على)، وهكذا كلما كانت التوبة من العباد إلى الله تعالى تعدّت بـ(الى)، وكلما كانت التوبة من الله تعالى تجاه العباد تعدّت بـ(على). وهنا أيضا لا بد من التفريق بين المقامين، بمقتضى الحكمة والعلم الإلهيين، فنقول مثلاً: إنّ التوبة من الانسان إنما هي رجوع إلى الله تعالى، وأما التوبة من الله تعالى فهي ليست من باب الحاجة بل من باب اللطف، مع وجود الاستعلاء.

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[سورة يس: ٦٠]، فقد ذكر بعض المفسرين أن المراد: الم يكن بيننا عهد على أن لا تعبدوا الشيطان! مع أنّ وجود الحرف (الى) بعد الفعل (اعهد) يعطي معنى آخر وهو الوصية، أي ألم اوصكم بان لا تعبدوا الشيطان![٦].

ثانياً: اختيار المفردات:

ومن تأثير التوجه إلى صفات المتكلّم وهو الله تعالى هو التوفر على هذه الحقيقة: وهي أنّ اختيار الكلمات والمفردات في القرآن الكريم إنّما يكون ناشئاً من الحكمة والعلم المطلق، وليس هو اختيار عشوائي أو اعتباطي أو من قبيل الصدفة، أو اختيار لا على التعيين، بل هو اختيار هادف، فعلى سبيل المثال: قال تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [سورة الضحى: ١ -٣]، فلماذا لم يقل مثلاً: (وما ودعك الله...) أو: (وما ودعك الرحمن...) أو غير ذلك؟!. بل قال: (ما ودعك ربك...)، فهل في

ذلك نكتة معينة؟. الجواب: قطعا الأمر كذلك، ولعل فلسفة ذلك هو انه حيث انه أراد نفي الترك والتوديع، فأتى بلفظ الرب وهو القيّم على الأمر، لبيان انه كيف يودعك وهو ربك!؟. لا يمكن أن يودّع الرب عبده! كما لا يمكن لرب البيت أن يودعه ويتركه، ورب الشيء لا يودعه ولا يتركه، بل يرعاه ويحرص عليه، وهكذا هناك في كل اختيار لمفردة دون غيرها منشأ وحكمة وفائدة ونكتة.

ثالثا: عدم التكرار:

إنّ كون القرآن الكريم كلاماً الهياً يتمتع بالدقة الإلهية الفائقة في اختيار الكلمات يوجب دائما وضعها في مكانها المناسب والمطابق للمعاني المرادة منها، بحيث لا يمكن استبدال غيرها بها في ذلك الموضع، كما لا يمكن ان تكون هنالك مفردة واحدة واقعة في عبارتين أو جملتين متقاربتين تحمل المعنى نفسه، على نحو يلزم التكرار دائماً، ومن هنا لا بد من التدقيق والفحص عن ما يمكن ان تعطيه هذه المفردة أو تلك من المعاني المختلفة؛ فعلى المفسّر بذل الجهد المضاعف في بيان ما يكون بظاهره تكراراً من آيات القرآن الكريم، وليس له حمل التعبيرات المتشابهة فيه على التكرار الزائد بسهولة، والمرور عليها مرور الكرام كما يقال، بل يسعى لاكتشاف الحكمة في ذكر الكلمات المكررة بحسب الشكل قدر الامكان، ولنضرب لذلك أمثلة:

المثال الاول:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة الحشر: ١٨]، فقد امر الله تعالى بالتقوى مرتين في هذه الاية، فهل ان المقصود واحد فيهما؟!. فمن المفسرين من ذهب إلى ان الامر الثاني بالتقوى انما هو تأكيد للامر الأول فحسب، وعلّق على من فسرهما بمعنيين مختلفين انه تفسير بدون قرينة[٧]، لكن ما أشرنا اليه من ان نفس التوجه إلى الصفات الإلهية من الحكمة والدقة تشكل قرينة تقوي ارادة معنيين مختلفين من التقوى، بالاضافة إلى تعليل الامر بالتقوى في الاية الثانية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾؛ ولذا فالأنسب هو التفسير

الذي ذهب اليه آخرون بان التقوى في الامر الأول تعني تجنب المعاصي وفعل الطاعات والتقوى في الامر الثاني تعني: إصلاح المأتي به من الطاعات وتهذيبها بالاخلاص[٨]، وكذا تقييم الاعمال المأتي بها باخلاص[٩]، أو انّ الامر بالتقوى في المرة الاولى انما هو للتوبة عما مضى من الذنوب، وفي المرة الثانية للمعاصي في المستقبل[١٠].

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢] في قضية معركة أحد، وعصيان جماعة من المسلمين أوامر النبي صلى الله عليه وآله بعدم ترك اماكنهم على جميع التقديرات، فراحوا يتركون مواضعهم من اجل الحصول على الغنائم سوى عبد الله بن جبير ونفر قليل معه، وقوله بعد ذلك في نفس الموضوع: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٥]، فهل انّ الاية الثانية تشير إلى نفس العفو الذي اشارت اليه الاية المتقدمة؟.

هناك من المفسرين من اعتبر المسألة من باب التأكيد[١١]، وينتهي الامر، لكن لا ينبغي ان نمر على ذلك مرور الكرام كما يقولون ونكتفي بمسألة التأكيد اينما وجدنا آيات متشابهة أو مكررة، بل مع التوجه إلى مسألة التوجه إلى صفات الحكيم سبحانه وتعالى علينا التأمل أكثر في الايتين، فمثلاً نقول: انّ الاية الاولى تخص طائفة من المؤمنين العاصين، وهم الطائفة الذين تم العفو عنهم بأثابتهم غماً بغمٍ لكيلا يحزنوا على ما فاتهم[١٢]، وبشمولهم بنعمة النعاس والنوم الهانئ بعد الحرب[١٣]، والاية الثانية تتحدث عن العفو العام عن كل الذين تولوا من المسلمين يوم التقى الجمعان[١٤]، تمسكاً بإطلاق الاية، ولهذا التفسير قرينة أُخرى، وهي انّ العفو الأول كان مصحوباً بالرفق والرأفة والتفضّل وتسميتهم مؤمنين، بخلاف العفو الثاني، فلحن الكلام مختلف فيهما[١٥].

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦]، فقد يقال: ما السبب في تكرار لفظ (عسى) في الاية؟!. إذ كان بالامكان التعبير هكذا: وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وتحبوا شيئا وهو شر لكم، بدون حاجة إلى تكرار كلمة (عسى)!. فهل يحسن بالمفسر لكتاب الله أن يمر على ذلك بدون تأمّل؟!. أو يلجأ إلى مسألة التأكيد مرة أُخرى!، مع انه لا شك ان هناك نكتة اقتضت ذلك، ومعنى لطيف قد أريد بيانه بذلك، فمثلاً نقول: إنّ تكرار عسى في الآية لكون المؤمنين كارهين للحرب، محبين للسلم، فأرشدهم الله سبحانه على خطئهم في الأمرين جميعا، بيان ذلك: أنه لو قيل: «عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم أو تحبوا شيئا وهو شر لكم»، كان معناه أنه لا عبرة بكرهكم و حبكم فإنهما ربما يخطئان الواقع، ومثل هذا الكلام إنما يلقى إلى من أخطأ خطأ واحدا كمن يكره لقاء زيد فقط، وأما من أخطأ خطاءين كأن يكره المعاشرة والمخالطة و يحب الاعتزال، فالذي تقتضيه البلاغة أن يشار إلى خطئه في الأمرين جميعا، فيقال له: لا في كرهك أصبت، و لا في حبك اهتديت، عسى أن تكره شيئا و هو خير لك وعسى أن تحب شيئا وهو شر لك لأنك جاهل لا تقدر أن تهتدي بنفسك إلى حقيقة الأمر، ولما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محبين للسلم كما يشعر به أيضا قوله تعالى سابقا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم﴾ نبههم الله بالخطاءين بالجملتين المستقلتين و هما: عسى أن تكرهوا، و عسى أن تحبوا[١٦].

المبحث الثاني:

الأخذ بالمدلولات الإلتزامية:

من الآثار المهمـــة التي تترتب على لحاظ صفات المتكلّم في تفسير القرآن هو لزوم استخراج المدلولات الإلتزامية من الآيات القرانية وحجيتها والاخذ بها بكل أنواعها، فانها كلها مرادة له سبحانه وتعالى لأنه عالم بها بخلاف ما قد يقال في الانسان العادي على ما يذكره البعض من عدم الاعتماد على المدلولات الإلتزامية بحجة ان المتكلّم غير ملتفت لها وانها خارجة عن إرادة المتكلم[١٧] اذ انه وان تم

في المتكلّم العادي لكنه لا يأتي بالنسبة لله تعالى، بل حيث ان الله تعالى يعلم ومحيط بجميع لوازم الكلام، ويعلم بان كلامه له هذه اللوازم، وانه في حالة فهم المخاطب لها فانها ستكون مرادة له وحجة ومعتبرة بشأنه.

وليس اكثر من دلالة الاشارة التي هي نوع من الدلالة الإلتزامية البيّنة بالمعنى الاعم أو غير البينة، من قبيل ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[سورة البقرة: ٢٣٣] وقوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[سورة الاحقاف: ١٥] ان مدة اقل الحمل هي ستة اشهر، فمع انه يقال ان هذه الدلالة غير مقصودة بالمراد الجدي، بل انّ عدم كون المدلول مقصوداً بالقصد الجدي من اركان ومقومات دلالة الاشارة[١٨] ولكن عدم كونها داخلة في المراد الجدي بحسب الاصطلاح لا يعني عدم حجيتها، بل لم يقل أحد بعدم حجية ما يستفاد بدلالة الإشارة، وكيف تكون حجة ويستخرج منها الحكم الشرعي أيضاً ولا تكون داخلة في المراد الإلهي؟!.

إنّ هذه الأمور تدخل في المراد الإلهي الجدي بالمعنى الاعم كما أطلقنا عليه في أبحاث أخرى.

ومن أمثلة اخذ المدلول الالتزامي بنظر الاعتبار ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسير قوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾حيث قال: «لاريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين، فتدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم، والمؤمن العالم أفضل»[١٩].

ان الأخذ باللوازم والتوجه لها مما يؤمن مقولة عطاء القرآن الابدي للناس والأمة، فان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية وهو كتاب جامع انزل لكل الناس وفي جميع الازمنة والامكنة إلى يوم القيامة، وبدون لحاظ المداليل الاشارية والإلتزامية والمعاني الباطنية لن يكون القرآن مواكباً للمسيرة ومجيبا عن المشكلات والاحتياجات البشرية، لذا فيمكن القول بان هذه اللوازم وان لم تكن

داخلة في المراد من اللفظ في وقت نزولها، لكن الارادة الإلهية قد تعلقت في النتيجة بهذه اللوازم واستخراجها، وبهذا الاعتبار فهي داخلة في المراد الإلهي.

المبحث الثالث:

جواز الأخذ باكثر من معنى:

من المسائل التي تطرح في علم التفسير، وكثيرا ما تبحث في علم الاصول، هي مسألة استعمال اللفظ في اكثر من معنى، وقد أعتقد بعض الاصوليين باستحالته ولعله المشهور بين المتأخرين منهم، استنادا إلى أدلّة معينة، فمثلا قالوا: أنّ النّفس باعتبار بساطتها يمتنع في حقها أن تلحظ معنيين مستقلين في آن واحد، والاستعمال في أكثر من معنى يستدعي ذلك[٢٠]، أو أنّ الاستعمال عبارة عن إفناء اللفظ في معناه بنحو يكون اللفظ ملحوظاً باللحاظ الآلي ومرآة للمعنى، ويستحيل وحدة الفاني مع تعدد المفني فيه في عالم اللحاظ[٢١]، وغير ذلك، وفي المقابل اعترف البعض الاخر بجواز ذلك، وناقش في أدلّة الامتناع[٢٢]، وكذا وقع البحث بينهم بعد تسليم امكان الاستعمال في اكثر من معنى وجوازه في صحة ذلك من الناحية اللغوية، بان يكون على وجه الحقيقة، بحيث يمكن الأخذ بكلا المعنيين بدون ان يكون ذلك مجازا، أم لا؟. وقد ادعى بعضهم عدم صحة ذلك؛ باعتبار ان قيد الوحدة مأخوذ في وضع الالفاظ، فعندما وضع لفظ (الماء) مثلا لهذا السائل المخصوص الذي يرفع العطش، وضع له بشرط ان لا يدل على معنى آخر في نفس الوقت والاستعمال، أو ان قيد الوحدة ليس مأخوذا كذلك، لكنه دخيل في غرض الواضع على الاقل وان لم يؤخذ قيدا في المعنى الموضوع له، وفي النتيجة يكون استعمال اللفظ في اكثر من معنى خلاف قيد الوحدة، كما ان البعض الاخر ناقش في ذلك واثبت ان الاستعمال المذكور ليس فيه خروج عن قانون الوضع، لإنّ قيد الوحدة لم يؤخذ في الوضع ولم بنحو الغرض، لكن عدم صحة الاستعمال في اكثر من معنى له نكتة أُخرى وهي ان هكذا استعمال هو خلاف القانون العرفي للمحـــاورة، بمعنى انه خلاف الظهور العرفي[٢٣].

وعلى أية حال فانّ هذه المسألة ترتبط

ارتباطاً وثيقاً بالموقف من مفردات القرآن كما هو واضح، وبجواز حملها على أكثر من معنى، فان عدداً غير قليل من المفردات القرآنية تدل معانٍ متعددة، ففي حالة وجود القرينة على إرادة بعضها دون بعض فهي، وإلاّ فيأتي السؤال: هل يمكن الحمل على جميع المعاني في كلام الله تعالى؟!. وهناك من المفسرين من صرّح بحمل اللفظ في هكذا موارد على جميع المعاني، بمعنى أنّها كلّها مرادةٌ للمولى عز وجل، كما جاء في تفسير جامع البيان للطبري مثلاً، قال: بعد ان ذكر اختلاف المفسرين في معنى كلمة (إلاً) في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[سورة التوبة: ٨]، فقيل انه: الله، وقيل: انه القرابة، وقيل: هو القسم، وقيل: هو العهد... «الصواب أن يعم ذلك كما عم بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله، ولا قرابة، ولا عهدا، ولا ميثاقا... »[٢٤].

وقد ذكر بعض المحققين ان الصواب هو التفصيل بين ما اذا كانت الكلمة تدل على عدة معاني على نحو الاشتراك اللفظي أو على نحو الاشتراك المعنوي، فان كان المورد من قبيل الثاني فلا اشكال في الحمل على جميع المعاني، لإنّ الظاهر حينئذ هو ذلك، واما لو كان المورد من قبيل الأول فالحمل على الجميع بدون قرينة على ارادة الكل مشكل؛ اذ هو خلاف الظاهر؛ لانه لم يوضع للكل بل وضع لكل على حدة، فيكون استعماله وارداة الكل مجاز وهو بحاجة إلى قرينة وهي مفقودة[٢٥].

لكننا نرى أنّهم قبلوا ان تحمل الآيات على معاني غير ظاهرة في مكان آخر، وذلك في الروايات التفسيرية التي ذكرت معان للآيات لا يمكن عدها من الاشتراك المعنوي، بل هي متباينة، وقامت هذه الروايات بتفسير الآية طبقاً لتلك المعاني، كما روى عن يحيى بن سعيد العطار قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ قال: علي وفاطمة بحران عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه يخرج منها اللؤلؤ والمرجان قال: الحسن والحسين »[٢٦]، فمع ان معنى البحرين واللؤلؤ والمرجان ليست ظاهرة

في هذه المعاني، ولا موضوعة لها بحسب الوضع اللغوي، بل هي معاني مجازية على نحو الاستعارة، اعترفوا بإمكان حمل الآيات على تلك المعاني بالإضافة لما هو ظاهر الآيات من المعاني، فتكون الاية دالة على معاني متعددة حقيقية ومجازية في نفس الوقت، فلم يقف أمامهم استحالة استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ كما ادعاه البعض من الأصوليين ـ ولم يحول دون ذلك الظاهر والمحاورات العقلائية والعرف العام، فتجاوزوا كل ذلك اعتمادا على توجيه ذكروه وهو: أن الروايات دلت على وجود الظاهر والباطن للقران، وان استعمال اللفظ في أكثر من معنى ممكن عقلاً[٢٧].

وهذا معنـــاه أنّ القرآن الكريم لم يتحدث فقط وفق المحاورات العرفية دائماً، بل اشتمل على خصوصيات أُخرى تميزه عنها، كإرادة الظاهر والباطن من كلام واحد، وقد بيّنا في أبحاث أخرى لنا في مسألة تحديد نوعية الخطاب القرآني أن الأقرب للصواب هو النظريـــة التركيبية، فلم يتحدث القرآن بلغـــة المحاورات العرفية فحسب دائماً، بل تحدث بأساليب مختلفة، وهذا منها.

وعلى ذلك فدعوى حمل اللفظ على أكثر من معنى في القرآن الكريم غير بعيدة، وقولهم: انه لا يجوز ذلك مع عدم القرينة على إرادة الكل، وان ذلك مختص بصـــورة الاشتراك المعنوي، استنادا إلى انه خلاف الظاهر –مع أنهم قبلوا ذلك في المعاني الباطنية –يمكن المناقشة فيه، باعتبار ان عدم جواز ذلك عقلاً أو عرفاً يختص بالمتكلم العادي، وإما لو أخذنا بنظر الاعتبار خصوصية المتكلّم وصفاته وهو الله سبحانه وتعالى أمكن الحمل على جميع ما يدل عليه اللفظ –في حالة عدم القرينة على إرادة البعض طبعا، بالإضافة إلى ان عدم ارادة الجميع يؤدي إلى حصول الابهام في الكلام، وهو يؤدي إلى الخروج عن حد البلاغة، فصوناً لكلام المولى عن ذلك، ينبغي الحمل على جميع المعاني التي يمكن للالفاظ ان تدل عليها، والحكم بانها جميعاً مرادة لله سبحانـــه وتعالى، وقد اشار إلى هذه النكتة الاخيرة بعض المحققين حيث قال –بعد نقل روايات

تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [سورة التوبة: ٣٦] بالائمة الاثني عشر عليهم السلام، وتوجيهات ذلك: «أقول: بل الحق الصحيح أنّ «الشهر» فى اللغة يأتي بمعنى العالم أيضا حقيقة و صريح الآية ان عدة العلماء عند اللهّ اثنا عشر عالما في كتاب اللهّ موجودين يوم خلق السماوات و الأرض شاهدين لخلقتها. وذلك لإنّ اللفظ إذا كان مشتركا في معنيين مثلا ولم يكن في الكلام ما يخصها بأحد المعنيين يلزم الحيرة في تعيين المراد وسقوط الكلام عن حدّ البلاغة لكنها في كلام البشر حيث لا يكون متوجها الا إلى وجه واحد ولقوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾(اللّهمّ الا في المكتوبات اللغزية و نظائرها) وأمّا في كلام الحكيم تعالى الذي لا يشغله شأن عن شأن فيجب الأخذ بكلا المعنيين و الحكم بالإطلاق و الا فيلغو كلامه عزّ و جلّ» [٢٨].

وقال الشيخ جوادي الآملي ما حاصله: (انّ الامتناع المتوهم -اي امتناع استعمال اللفظ في اكثر من معنى- امّا لقصور في قابلية اللفظ أو في تلقي المخاطب أو لمحدودية علم وارادة المتكلم، والشيء المهم الذي يرتبط بها ذكر في ذلك المبحث انما يرجع إلى الثالث، فلو كان المتكلّم أو المريد هو الله سبحانه وتعالى ذا العلم والارادة غير المحدودين فليس هناك محذور في ارادة عدة معاني من لفظ واحد...)[٢٩].

وقد تكون في قول النبي صلى الله عليه وآله المنقول في الحديث عنه: (القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه)[٣٠] اشارة إلى هذاالمطلب، وان للقرآن معاني طولية وعرضية متعددة، اذا لم يمكن الجمع بينها يؤخذ باحسنها، فلو لم تكن تلك المعاني تامة وصحيحة فلا يكون القرآن بلحاظها ذلولا انسيابيا وقابلا للانعطافّ ولم تُحسب من وجوه القرآن الكريم اساساً!.

وخلاصة القول: انه ليس هناك محذور ثبوتي ولا إثباتي في استعمال اللفظ في أكثر من معنى بالنسبة لله سبحانه.

المبحث الرابع:
عدم الحمل على الوجوه الادبية الشاذة أو الضعيفة

ومن الآثار المهمـــة الأخرى التي تترتب على التوجه إلى صفات المتكلّم في تفسير القرآن الكريم انما هو عـــدم الحمل على الوجوه الادبيـــة الشاذة أو الضعيفة، لإنّ هذا الامر يمكن ان يصدر من المتكلّم العادي الذي لا يكون محيطا باللغة وبمفرداتها من جميـــع الجوانب، واما الله تعالى العالم والمحيط بكل دقائق اللغة وجزئياتها فلا يمكن ان يصدر منه ذلك؛ باعتبار ان ذلك خلاف الفصاحة والبلاغـــة، والهدف المنشود، والاعجاز البياني، نعم استعمل القرآن مفردات من لغات ولهجات مختلفة من اللغة العربية، مما ادى إلى توحد اللغة وتقارب قبائلها مما هو مفصل في محله، لكن ليس ذلك بمعنى استخدام المفردات الشاذة في اللغة أو الضعيفة التي لا تنسجم مع ما ذكرنا من الفصاحة والبلاغة، سواء كان ذلك في التراكيب أو المفردات.

اولا: في التراكيب:

قال تعالى: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ٤٦]، فقـــد يُفسر هذا القول بأنّ المراد به قليل الايمان في مقابل كامله وأنّ المعنى: فلا يؤمنون إلاّ قليلاً من الايمان لا يعتد به[٣١]، لكنّ إتصاف الايمان بالقلة والكثرة رديء وغير بليغ، فنفس الايمان لا يتصف بذلك الاّ بالنظر العرفي السطحي المسامحي، ولا يمكن تصور ذلك بحق الله تعالى المتكلّم للقرآن بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة، بل نقول مثلاً: ان (قليلاً) حال من المؤمنين، أي لا يؤمنون إلاّ وهم قليل، أو: انها وصف لموصوف محذوف، والتقدير: فلا يؤمنون الاّ ايماناً قليلاً على نحو الوصف بحال المتعلّق، أي إيماناً المؤمن به قليل[٣٢].

ثانيا: في المفردات:

قولـــه تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ســـورة الانعام: ١٠٩]، وقد وقع الخلاف بين المفسرين في تفسير هذه الاية، فقال البعض: ان (ما) فيها إستفهامية، وقال آخرون انها نافية، وايضا

هل انّ كلمة(أنها) إستئناف للكلام أم متصلة به، وامور أُخرى[٣٣]، لكن المعنى بصورة اجمالية هو: ان هؤلاء (قريش) اذا جائتهم المعجزات (التي طلبوها من النبيﷺ) من آيات الله تعالى لا يؤمنون ولو انهم حلفوا انهم يؤمنون اذا اتتهم، لكن ما يهمنا هنا هو انّ البعض ذكر إحتمال ان تكون(أنّ) في (أنّها) بمعنى (لعل)[٣٤]، اي قد لا يؤمنون، مع انّ هذا المعنى شاذ لا ينبغي ان يحمل عليه كلام الله تعالى[٣٥]؛ لإنّ استعمال المعاني الشاذة اما ان تنتج من نقص في علم المتكلّم بوضع المعاني، أو من أمور أُخرى لا تنسجم مع المتكلّم المحيط بدقائق اللغة واساليب التعبير.

المبحث الخامس:

عدم وجود التناقض والاختلاف في القرآن.

ان وجود التناقض في كلام المتكلّم انما ياتي من أحد امرين: الاول: التغيير الذي يطرأ على افكاره ومعتقداته بمرور الزمان فيكتشف عدم صواب ما ذكره سابقاً، أو يتضح لها امكانية تبديله بالافضل. الثاني: النسيان والغفلة عما ذكره سابقاً فيتحدث بما يتنافى معه.

قال العلامة الطباطبائي: «ما من إنسان إلا وهو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس وأن ما ينشئه من عمل أو صنعة أو ما أشبه ذلك أو يدبره من رأى أو نظر أو نحوهما أخيراً أحكم وأمتن مما أتى به أولا حتى العمل الواحد الذي فيه شئ من الامتداد الوجودي كالكتاب يكتبه الكاتب، والشعر يقوله الشاعر، والخطبة يخطبها الخطيب، وهكذا يوجد عند الامعان آخره خيرا من أوله، وبعضه أفضل من بعض. فالواحد من الانسان لا يسلم في نفسه وما يأتي به من العمل من الاختلاف، وليس هو بالواحد والاثنين من التفاوت والتناقض بل الاختلاف الكثير، وهذا ناموس كلى جار في الانسان وما دونه من الكائنات الواقعة تحت سيطرة التحول والتكامل العامين لا ترى واحدا من هذه الموجودات يبقى آنين متواليين على حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته وأحواله»[٣٦].

ان كل ذلك إنّما هو ناتج عن محدودية المتكلّم من البشر، واما الله سبحانه وتعالى

فحيث ان علمه مطلق ولا يعرض عليه التغيير والاختلاف والغفلة والنسيان، فكلامه منزه عن تلك الامور.

بالاضافة إلى أنّ الهدف من نزول القرآن هو هداية الناس إلى الايمان بالله والتوحيد وما فيه كمالهم، وهو لا يتحقق الاّ بسلامته من التناقض؛ اذ ان وجود التناقض فيه يخدش في مسألة إعتبار وحجيته، وكذا في مسألة حقانيته وقابليته لاثبات الهية الوحي ونبوة النبي المرسل ﷺ المتمثلة بالاعجاز من جانب، ويثبت عدم صلاحيته لتأمين هداية البشر على طول الزمن إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والاخرة.

وقد أشار القرآن أيضاً إلى عدم وجود الاختلاف فيه بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢]، قال الشيخ الطوسي في ذيل هذه الاية: «... انها تدل على أن المتناقض من الكلام ليس من فعل اللهّ تعالى... »[٣٧].

فالاية تشير بوضوح إلى ان عدم الاختلاف والتناقض انما هو من آثار خصوصية المتكلّم وهو الله تعالى بما له من صفات الحكمة والعلم المطلق، ولو كان من عند البشر لكان فيه ذلك، وليس المراد بكثرة الاختلاف القيد الاحترازي، بل القيد التوضيحي؛ لانه لا يوجد اختلاف كثير ولا قليل في القرآن، لا انه يريد ان ينفي الاختلاف الكثير ويثبت الاختلاف القليل[٣٨].

وروي انّ بعض الزنادقة جاء إلى الامام امير المؤمنين عليه السلام وقال له: لولا ما في القرآن من الاختلاف والتناقض لدخلت في دينكم، فقال له عليه السلام: «وما هو؟. فراح يذكر بعض الآيات، ثم اجابه الامام عليه السلام على ذلك حتى اقتنع ذلك الرجل ودخل الاسلام»[٣٩].

وروى عن سعيد بن جبير أنّه قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: أرأيت أشياء تختلف علي من القرآن، قال: ما هو أشك في القرآن؟. قال: ليس بشك، ولكن اختلاف، قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك، فصار الرجل يذكر مواردا وابن عباس يجيبه[٤٠].

المثال الاول:

قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[سورة النساء: ٧٨-٧٩].

فقد كانت الاية الاولى بصدد الاجابة عن جماعة اعترضوا على مسالة تكليفهم بالقتال والجهاد، اما لخوف دخل في قلوبهم ولركونهم إلى الدنيا ولذاتها، ومن جملة ما آذى المنافقين واليهود به النبي ﷺ هو انهم كلما رأوا النعم الوافرة نسبوها إلى الله تعالى رأوا القحط والجدب نسبوه إلى النبي ﷺ، أو كلما رأوا نصرا في المعركة نسبوه إلى الله تعالى، وكلما اصابتهم الهزيمة ينسبونها إلى النبي ﷺ، فجاء الجواب انه قل: (كل من عند الله)[٤١]، لكن في نفس الوقت تقرر الآية التي بعدها التفصيل، وانّ كل ما اصابك من حسنة فمن الله تعالى، وكل ما اصابك من سيئة فمن نفسك!. وهنا يبدو بالنظرة الابتدائية وجود التناقض بين الايتين، اذ من جهة ينسب كل شيء إلى الله تعالى ومن جهة أُخرى يفصّل في ذلك!.

وينبغي توجيه ذلك بما يخرجه عن التناقض الظاهري بين الآيتين، لكن لا كالوجوه التي ذكرها بعض المفسرين من ان الاصل هو الاية الاولى، وهو ان كل شيء منسوب إلى الله تعالى، واما ما في الاية الثانية فهو لرعاية الادب، اي ان الواقع هو ان السيئة من الله تعالى ايضا، لكن رعاية للادب والاحترام ننسبها إلى العبد!. ومن اللطيف ان الرازي يضرب لذلك مثالاً فيقول: انه يقال لله تعالى: يا مدبر السموات والأرض، ولكنه لا يقال: يا مدبر القمل والصئبان والخنافس، مع انه مدبرها جميعاً، ولكنّ ذلك من باب الادب والاحترام، فكذا ها هنا[٤٢].

بل ان الله تعالى لا يمكن أن يذكر شيئاً خلاف الواقع مطلقاً، ولو كان من اجل رعاية الادب أو ما شاكل ذلك، ولا يناسبه مقام التعارفات والتسامحات، وانما نتج هذا الوجه عن قياس الباري تعالى على المتكلّم البشري العادي، كما اننا لو حللنا المشكلة هنا بهذا الكلام فماذا نفعل

في سائر الآيات التي تبيّن ان الشر والسوء والمصائب التي تلحق الانسان انما هي بسوء فعله؟!. فهل نحملها كلها ايضا على الادب والاحترام؟![٤٣].

بل يحل ذلك بوجوه معقولة بان نقول: ان نسبة السيئة اليه تعالى في الاية الاولى باعتبار انه هو معطي القدرة عليها، واما صبغتها وسمتها بذلك انما كان فعل العبد، أو ان ذلك لبيان نظرية الامر بين الامرين، وهو انه تعالى فاعل من جهة والعبد من جهة أُخرى باعتبارين، أو ان المراد بالسيئة هو العقاب الذي يُنال جراء فعلها -وهو مروي عن اهل البيت عليهم السلام- لما كانت العقوبة هي نتيجة لأفعال العاصين من العباد، لذلك تنسب أحيانا إلى العباد أنفسهم و أحيانا أُخرى إلى اللهّ، و كلا النسبتين صحيحتان، إذ يمكن القول في قضية إنّ القاضي هو الذي قطع يد السارق، كما يجوز أن يقال إنّ السارق هو السبب في قطع يده لارتكابه السرقة[٤٤].

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [سورة البلد: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [سورة التين: ٣]؛ حيث يبدو بالنظر السطحي التناقض بينهما، ففي الاية الاولى نفى القسم بالبلد-وهو مكة -وفي الاية الثانية أقسم بالبلد الامين -وهو مكة نفسها، ولذا قد يتمسك بمثل هذه الموارد بعض من يريد الطعن على القرآن الكريم، واثبات الاختلاف والتناقض فيه، لكن حيث ان المتكلّم لهذا القرآن هو العالم الحكيم المنزه عن التناقض والاختلاف في القول يمتنع تفسير (لا اقسم) في الاية الاولى بمعنى نفي القسم، وذهب بعض المفسرين إلى كون (لا) زائدة، وان العرب قد تزيدها في الكلام ولا تريد معناها، وقد ذكروا بعض الشواهد من الشعر على ذلك[٤٥]، لكن (لا) في تلك الشواهد كانت داخلة على حرف لا على فعل، فلذا انكر بعض المحققين مجيئها زائدة في كلام العرب، واختار وجها اخر: وهو ان مورد الايتين مختلف، ففي الاولى هو جعل الانسان في كبد، وهو واضح لا يحتاج إلى قسم، وفي الثانية هو ان الانسان خُلق ليكون رفيعاً، لكنّه وبسوء اختياره يحط من نفسه فيرتد

اسفل سافلين، وهو بحاجة إلى تاكيد بالقسم، ثم اشار إلى معنى ادق وهو: ان (لا اقسم) انما هو نوع من القَسم لا نفي للقَسم، لكنه قَسم سلبي، فالمعنى: ان المطلب لوضوحه لا يحتاج إلى قسم، فهو في حقيقته قسم لكنه بصورة سلبية، وهو آكد من صورة الايجاب[٤٦].

وعلى اية حال فمجيء (لا) زائـــدة وان ثبت من اللغـــة لكن لا ريب انه شاذ، وقد تقدم ان القرآن لا يحمل على الوجوه البلاغية الشاذة لنفس قرينيـــة المتكلّم التي تحدثنا عنها، وعلى حد تعبير العلامة البلاغي: ((وليت شعري لماذا لا تنزه جلالة القرآن المجيد و براعته عن لغوية هذه الزيادة التي لا غاية فيها إلا الإيهام؟!.))[٤٧]، وحيث ان الوجه الثالث هو الادق والابلغ فهو المعول للنكتة المتقدمة بعينها.

المثال الثالث:

تحدثت بعض الآيات عن مسألة خلق السماء والارض، فقالت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ.. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ.. ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾[سورة فصلت: ٩-١٢].

كما انّه قد تكـــرر في عدة مواضع من القرآن انّ خلقهما كان في ستة ايام، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[سورة السجدة: ٤].

ويدل ظاهر الآيات السابقة بدواً ان خلق السماء والارض وما فيها كان في ثمانية ايام؛ لإنّ اليومين في الاية الاولى كانا لخلق الارض، يضاف اليها أربعة أيام في الثانية لجعل الرواسي فوقها، وباضافة يومين آخرين في الآيـــة الثالثـــة لخلق السماء، يكون المجموع ثمانية، مع ان الاية اللاحقة صريحة بانّ خلقهما وما بينهما كان في ستة ايام؛ ولذا حاول بعض المغرضين الاحتجاج به لاثبات التناقض في القرآن، وانشغل ذهن المفسرين في حل التعارض الموجود، فارتكبوا انواع التقدير والحذف لاجل محذور وقوع التناقص، فقالوا مثلا: ان الظرف (في أربعة ايام) في الاية الثانية متعلق بخبر محذوف، وذلك الخبر لمبتدأ

محذوف أيضاً، والتقدير: كل ذلك كائن في اربعة ايام[٤٨]، اي ان خلق الارض مع جعل الرواسي وتقدير الاقوات كلها في اربعة ايام، فاذن خلق الارض اذا نظرنا اليه لوحده فهو في يومين واذا نظرنا اليه مع تلك الامور يكون المجموع اربعة ايام، ثم باضافة اليومين لخلق السماء في الاية الثالثة يكون المجموع ستة، فيكون مطابقا لما كرر في عدة موارد في القرآن من ان خلق الارض والسماء وما بينهما كان في ستة ايام، وهذا كقول القائل: (سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام)، و: (سرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً) يريد كلا المسافتين[٤٩].

المثال الرابع:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود: ١٠٨].

فانه يوهم وجود التناقض في الاية؛ فان الوعد فيها بالخلود يتنافى مع التقييد بمدة دوام السماوات والارض!. وكذا مع الاستثناء بالمشيئة الإلهية!. لكن مع التوجه إلى ما ذكرنا من استحالة وجود التناقض في كلامه تعالى يؤكد ان الاية بحاجة إلى فهم صحيح؛ ولذا عد الطبرسي ذلك من المواضع المشكلة في القرآن، وذكر اقوالاً مختلفة للمفسرين، حيث نقل أربعة عشر قولاً في كلا المسألتين -اعني التقييد والاستثناء، فمما ذكره فيما يخص المسألة الاولى على سبيل المثال: ان المراد بدوام السماوات والارض دوامهما حال كونهما مبدلتين، اي سماء الآخرة وأرضها، وهما لا يفنيان، فلا ينافي التقييد الخلود، أو: أنّ المراد التبعيد، وأنّ للعرب ألفاظاً للتبعيد في معنى التأبيد، فيقولون: لا افعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، أو: ما نبت النبت، أو: ما أطّت الابل، ظنّاً منهم ان هذه الاشياء لا تتغير، ويرون بذلك التأبيد، فخاطبهم الله سبحانه بالمتعارف من كلامهم على قدر عقولهم وما يعرفون[٥٠].

وقد رجح هذا الاخير العلامة معرفة في كتاب شبهات وردود، حيث قال: «وهذا الوجه هو الرأي السديد حسب الظاهر»[٥١]، لكننا نقول: انّ كلام الله سبحانه وتعالى خال من المخالفة للواقع،

فان القرآن الكريم ليس فيه باطل اطلاقاً وان كان ذلك مجاراة للقوم، كما تشير اليه اية (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)، وهذا ايضا من اثار التوجه إلى صفات المتكلم، واللوازم التي تترتب على صدور هذا القرآن من الله تعالى، وعلى قدسية هذا النص الإلهي، وستأتي الأشارة إلى ذلك في النقطة اللاحقة، وهي خلو القرآن من المخالفات للواقع.

ومن الأقوال التي ذكرها الطبرسي فيما يخص المسألة الثانية -الاستثناء بالمشيئة- هو: أنّ الاستثناء انما هو في الزيادة من النعيم لاهل الجنة، اي الا ما شاء ربك من الزيادة على هذا المقدار من انواع النعم، وهذا كما يقول الرجل لصاحبه: لي عليك الف دينار الا الالفين اللذين اقرضتكهما وقت كذا، يعني ان الالفين زيادة على الالف، بقرينة ان الكثير لا يستثنى من القليل، او: ان (الا) هنا بمعنى الواو، اي وما شاء ربك من الزيادة،... الخ من الوجوه[٥٢].

وقد أجاد هنا -فيما يخص مسألة الاستثناء بالمشيئة -العلامة معرفة حين قال: «... والذي يترجح في النظر ان مثل هذا التعليق في كلامه تعالى امر عادي إذا ما لاحظنا شيمة الاكابر حيث لا يحتمون على أنفسهم أمراً ليكون لزاماً عليهم فيطالبوا بانجازه!. وان كانوا يوفون بما وعدوا كرامةً وفضلاً لا تكليفاً والزاماً، ومن ثَم ترى ان أكثر وعوده تعالى التي جاءت في القرآن كانت بصورة خلق الرجاء في نفوس الموعود لهم، مبدوّة بلفظة (لعل) و (عسى) ونحوهما، مما يجعل الانجاز معلقاً على مشيئته واقتضاء حكمته وليس حتما عليه في ظاهر الوعد، وان كان الله تعالى يفي بما وعد فضلاً ومنةً ولا يخلف الميعاد»[٥٣].

فقد توجه هنا بصورة جيدة لصفاته تعالى في تفسير كلامه سبحانه؛ مما أثر في تشخيص المعنى للاية، وهذا نموذج آخر من تأثير التوجه إلى صفات المتكلّم عز شانه، كما ان الوجه السابق له -وهو اعتبار (الا) بمعنى الواو- يمكن نفيه بعدم صحة الحمل على الوجوه الادبية الشاذة أو

الضعيفة، كما تقدم، وهذا منها.

المبحث السادس:

عدم وجود المطالب المخالفة للواقع في القرآن.

من الآثار المهمة الأخرى التي تترتب على لحاظ صفات المتكلّم في تفسير القرآن هو الاعتقاد بخلو القرآن الكريم من المطالب غير المطابقة للواقع، باعتبار انها انما تصدر من الانسان والمتكلم العادي الذي يكون علمه محدوداً وناقصاً، وأمّا بالنسبة إلى الله تعالى فهو العالم المطلق الذي لايعتريه جهل، والحكيم المطلق الذي لا يلابس افعاله اللغو، و لا تجانس اقواله الباطل، ومما يؤكد ذلك ما وصف الله تعالى كلامه بانه نزل بعلمه في قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[سورة النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[سورة فصلت: ٤١-٤٢]، وقد ذكر الطوسي من معاني الاية انّ: «معناه لا يأتي بشيء يوجب بطلانه مما وجد قبله و لا معه و لا مما يوجد بعده»[٥٤]، وقال الطبرسي كذلك ايضاً: «... لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات فلا تناقض في ألفاظه ولا كذب في أخباره ولا يعارض ولا يزاد فيه ولا يغير...»[٥٥].

وقد وصف الله تعالى آياته وكلامه بانه الحق، فقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[سورة آل عمران: ٣]، وأيضاً: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٢]، وآيات أُخرى كثيرة[٥٦]، كما انه تعالى وصفها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾[سورة الطارق: ١٣-١٤]، ف القرآن هو دائماً هو القول الفصل، ودائما هو الحق؛ فانّ هذه الآيات مطلقة لا تقييد فيها، لا انه فصل في بعض الآيات وليس فصلا في ايات أُخرى!. أو حق في جانب وليس بحق في جوانب أُخرى، فليس بيانه حق وفصل في مسائل التوحيد مثلاً، وليس بحق وفصل في بيان موضوعات خارجية أو قصص تأريخية أو غير ذلك.

ومما يؤكد هذا الاثر ايضاً هو تلائم

ذلك مع الهـــدف من نزول القرآن هو هداية الناس إلى الايمان بالله والتوحيد وما فيه كمالهم وسعادتهم؛ وهذا لا يتم الا ببيان الحقائق الحقة في علاقة الانسان بالله تعالى وعلاقته بالانسان الاخر وعلاقته بالطبيعة، ونفي ما بنى عليه الناس حياتهم ونظرتهم الكونية من العقائد الباطل، قال العلاّمة الطباطبائي في هذا الصدد: «... فالناس -مثلا -يرون أن الأصالـة لحياتهم المادية حتى قال قائلهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [سورة الجاثية: ٢٤]، و القرآن ينبههم بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[سورة العنكبوت: ٦٤]، ويرون أن العلل والأسباب هي المولدة للحوادث الحاكمة فيها من حياة وموت وصحـــة ومرض وغنى وفقر ونعمـــة ونقمة ورزق وحرمان ﴿بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[سورة سبأ: ٣٣]، و القرآن يذكرهم بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الاعـــراف: ٥٤] وقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[سورة يوسف: ٦٧]، وغير ذلك من آيات الحكمة، ويرون أن لهم الاستقلال في المشية يفعلون ما يشاؤن و القرآن يخطئهم بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[سورة الانســـان: ٣٠]، ويرون أن لهم أن يطيعوا ويعصوا ويهدوا ويهتدوا و القرآن ينبئهم بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[سورة القصص: ٥٦]، ويرون أن لهم قوة و القرآن ينكر ذلك بقولـه: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[سورة البقرة: ١٦٥]. ويرون أن لهم عزة بمال وبنين وأنصار و القرآن يحكم بخلافه بقوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[سورة النساء: ١٣٩]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: ٨]. ويرون أن القتـــل في سبيـــل الله موت وانعدام و القرآن يعده حياة إذ يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[سورة البقرة: ١٥٤]، إلى غير ذلك من التعاليم القرآنية التي أمر النبي ﷺ أن يدعو بها الناس قال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]. وهي علوم وآراء جمة صورت

الحياة الدنيا خلافها في نفوس الناس وزينه فنبه تعالى لها في كتابه وأمر بتعليمها رسوله وندب المؤمنين أن يتواصوا بها كما قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [سورة العصر: ٣]، وقال: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]. ف القرآن بالحقيقة يقلب الانسان في قالب من حيث العلم والعمل حديث ويصوغه صوغا جديدا فيحيى حياة لا يتعقبها موت أبدا، واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[سورة الانفال: ٢٤]، وقوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾[سورة الانعام: ١٢٢]»[٥٧]، وهذا الهدف وتلك الهداية لا تتم الا عن طريق بيان الحق والواقعيات امّا الباطل والخرافات والاعوجاج فهو مانع من تحقق تلك الغاية.

وعلى ذلك فعلى المفسر ان يراعي هذه المسألة في التفسير ويأخذ بنظر الاعتبار ذلك، فلو ادّى تفسير اية معينة إلى وجود أمور باطلة غير حقة حتى ولو كانت على مستوى التمثيل أو التشبيه أو القصة أو الاخبار او... فلابد من التأمل في ذلك التفسير واعادة النظر فيه، فمن غير الصحيح ان ننسب إلى القرآن امور غير واقعية تابعة لثقافات عصر معين كما يتفوه به البعض من تأثر القرآن بثقافة عصره بما فيها الامور غير الصحيحة وغير الواقعية، وانه كان مجبراً على التفوه ببعض الاباطيل أو الخرافات.

ويمكننا هنا التعرض لبعض الامثلة على ما تقدم:

المثال الاول:

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥]، فقد ذكر البعض ان ذكر الجن وتأثيره في هذه الاية هو نوع من مجاراة القوم، وهو مأخوذ من الخرافات الاساطير الرائجة بين العرب آنذاك؛ حيث ان العرب كانوا يسندون حصول

الامراض الجسدية والعقلية لشخص إلى دخول الجن وتصرفه فيه، فراح القرآن ومن باب المجاراة لهم يشبه قيام الذي يأكل الربا بقيام من يتخبطه الشيطان[٥٨].

وقد أكّد بعض المحققين في علوم القرآن بان القرآن ذكر ذلك من باب التشبيه والمجارات، وليس المقصود تقرير حقيقة ان الامراض العقلية تحصل بتأثير الجن أو الشيطان، بل هو مجرد تشبيه على ما هو الحال في المحاورات العرفية التي لا تكون محكومة بالدقة دائماً، ولذا لا ينبغي ان نفهم من قوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [سورة النجم: ٢١ -٢٢] انّ الله تعالى يعتبر الذكر افضل من الانثى، وانه غضب لاعتبارهم الملائكة بنات له، بل تحدث القرآن هنا بما هو متعارف بينهم[٥٩].

وهنا ينبغي علينا الالتفات إلى ان الله تعالى ليس متكلماً عادياً، ولا ينبغي ان نتعامل معه كما نتعامل مع المتكلّم العرفي العادي، بل لابد من اخذ صفاته تعالى وعظمته وحكمته واحاطته، وعليه فليس من الصحيح ان يتكلم الله تعالى بالباطل مثلاً ولو كان على نحو التشبيه أو المجارات؛ ولذا اشكل العلامة الطباطبائي في خصوص الاية السابقة بما نصه: « وفيه: انه تعالى أجل من أن يستند في كلامه إلى الباطل ولغو القول بأي نحو كان من الاستناد إلا مع بيان بطلانه ورده على قائله... »[٦٠].

وبالنتيجة فإنّه يمكن ان يكون للشيطان مثلاً تاثيراً وان لم يكن بصورة مباشرة، تمسكاً بنفس دلالة هذه الاية، وليست هناك منافاة بين ذلك وبين ما يقوله علم الطب؛ اذ قد يكون تاثيره في طول تأثير العوامل الطبيعية، بل ان العلوم الطبيعية لا يسعها الحكم نفيا واثباتا الا على ما تناله يد الحس من الاسباب[٦١].

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [سورة الصافات: ٦٤-٦٥]، فلا يصح القول بأنّ الاية تحدثت عن شيء غير واقعي، وان الشياطين ليس لها رؤوس، وإن التعبير برؤوس الشياطين هنا جاء وفقاً لما توهمته العرب

من ان للشياطين رؤوساً على غرار ما توهموه في الغول، وذلك لإنّ ملاحظة صفات المتكلّم وهو الله سبحانه وتعالى بما له من العلم والحكمة تدفع هذا التفسير؛ ولذا بسط القول في تفسير (الشيطان) هنا العلامة محمد هادي معرفة فذكر بانه ليس الشيطان اسماً لابليس ولا خاصة بجنوده وانما اطلق عليه كاطلاقه على سائر ذوي الشرور، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [سورة الانعام: ١١٢]، وهو مأخوذ لغة من شاط يشيط اذا أشتد غضبه على نحو المبالغة، وهو وصف يطلق على كل متمرد من الجن والانس، وذكر ايضا ان الشيطان اسم لحية لها عرف، وهي لحمة مستطيلة فوق راسها شبه عرف الديك، وعليه فالتشبيه في الاية انصب على الواقع المشهود، وهو رؤوس الحيات القبيحة المنظر[٦٢].

نتائج البحث:

١- ينبغي تفسير الحروف والمفـــردات والتركيب القرآنية بما يناسب الحكمة والعلم والدقة التي يتصف به المتكلم والمنزل لهذا القرآن سبحانه وتعالى.

٢- لا بد من السعي لاستخراج المداليل الالتزامية للآيات والاخذ بها.

٣- جواز الأخذ بأكثر من معنى في القرآن.

٤- عدم حمل الآيات القرآنية على الوجوه الأدبية الشاذة أو الضعيفة.

٥- لا يوجد تناقض واختلاف في القرآن.

٦- لا توجد مطالب المخالفة للواقع في القرآن.

* * * * *

الهوامش:

(١) تفسير الميزان -ج٥ ص٣٨١.

(٢) [سورة المائدة: ٤٦]، و: [سور الاعراف: ٢٠٣]، و: [سـورة يوسف: ١١١]، و: [سورة الجاثية: ٢٠]، و: [سورة النحل: ٨٩]، و: [سورة البقرة: ١٢١]، و: [سورة النساء: ١٦٢].

(٣) أنظر: محمد هادي معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم، ص٢٥٢.

(٤) من قبيل ما جاء في سورة المائدة، في الآية ٧٤، والنور، الآية٣١.

(٥) من قبيل ما جاء في سورة البقرة، في الآية ١٦٠، والنساء، الآية ١٧، والتوبة، الآية ١٠٢ وغيرها.

(٦) أنظر: محمد السلطاني، تأثير المؤلف على فهم الاثر (مع التأكيد على فهم القرآن)، مجلة معرفة القرآن، العدد٥، ص٦٥.

(٧) أنظر: ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل،

ج١٨، ص٢٠٨.

(٨) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٩، ص٢١٩.

(٩) أنظر: محمود الرجبي، علم الانسان، ص٨٤.

(١٠) أنظر: الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٣٩٨.

(١١) أنظر: الفضل بن ا لحسن الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٢، ص٨٦٤.

(١٢) سورة آل عمران، الآية١٥٣، في قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾.

(١٣) سورة آل عمران، الآية١٥٤، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ ﴿بَلْ

(١٤) سورة آل عمران، الآية١٥٥، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾

(١٥) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٤، ص٥١.

(١٦) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٢، ص١٦٦.

(١٧) أنظر: عزيزي كيا، غلام علي، الدلالة الإلتزامية ودورها في تفسير النص، مجلة معرفة القران، العدد١، ص٧٢.

(١٨) أنظر: محمد رضا المظفر، اصول الفقه، ص١٠٤.

(١٩) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٩، ص١٨٨.

(٢٠) محمد اسحاق الفياض، محاضرات في اصول الفقه (تقريرات بحوث السيد الخوئي)، ج١، ص٢٣٤ -٢٣٥.

(٢١) محمد كاظم الخراساني، كفاية الاصول، ص٥٣.

(٢٢) محمود الهاشمي، بحوث في علم الأصول (تقريرات ابحاث اليد محمد باقر الصدر)، ج١، ص١٥٠ -١٥٤.

(٢٣) محمود الهاشمي، بحوث في علم الأصول (تقريرات ابحاث اليد محمد باقر الصدر)، ج١، ص١٥٤ -١٥٥.

(٢٤) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٥٩ -٦٠.

(٢٥) أنظر: علي أكبر البابائي وغلام علي عزيزي كيا ومجتبى روحاني راد، منهج تفسير القرآن، ص٨٦ -٨٧.

(٢٦) عبد علي بن جمعة الحويزي، نور الثقلين، ج٥، ص١٩١، الحديث ١٧.

(٢٧) أنظر: علي أكبر البابائي وغلام علي عزيزي كيا ومجتبى روحاني راد، منهج تفسير القرآن، ص٨٨ -٨٩.

(٢٨) محمد باقر المجلسي، بحارالانوار، ج٣٦، ص٣٩٥، في الهامش.

(٢٩) عبد الله جوادي آملي، التسنيم في تفسير القرآن الكريم، ج١، ص١٢٩ -١٣٠.

(٣٠) محمد علي الاحسائي، عوالي اللئالي، ج٤، ص١٠٤.

(٣١) أنظر: عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج٢، ص٧٧.

(٣٢) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٤، ص٣٦٦.

(٣٣) أنظر على سبيل المثال: ناصر مكارم

الشيرازي، تفسير الامثل، ج٤، ص٤٢٦، الهامش رقم٢.

(٣٤) أنظر: محمد بن عمر الزمخشري، مفاتيح الغيب، ج١٣، ص١١٣.

(٣٥) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٧، ص٣١٩.

(٣٦) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٥، ص١٩ -٢٠.

(٣٧) أنظر: محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٣، ص٢٧٠.

(٣٨) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٥، ص٢٠.

(٣٩) أنظر: احمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص٣٥٨ وما بعدها.

(٤٠) أنظر: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تفسير القرآن، ج١، ص١٦٠ وما بعدها.

(٤١) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، ج٣، ص١٢٠ -١٢١.

(٤٢) أنظر: محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠، ص١٤٨.

(٤٣) أنظر: محمد السلطاني، تأثير أصل العدل الإلهي في تفسير القرآن الكريم، مجلة معرفة القرآن، العدد١١، ص٢٠.

(٤٤) ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل، ج٣، ص٣٣٨ -٣٤٠.

(٤٥) أنظر: محمد جواد البلاغي، تفسير آلاء الرحمن، ج١، ص٣٨.

(٤٦) أنظر: محمد هادي معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم، ص٢٦٢.

(٤٧) أنظر: محمد جواد البلاغي، تفسير آلاء الرحمن، ج١، ص٣٨ -٣٩.

(٤٨) أنظر: محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن غامض التنزيل، ج٤، ص١٨٨.

(٤٩) أنظر: محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٧، ص٥٤٥.

(٥٠) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، ج٥، ص٢٩٧.

(٥١) أنظر: محمد هادي معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم، ص٢٩٦.

(٥٢) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، ج٥، ص٢٩٧ -٢٩٩.

(٥٣) أنظر: محمد هادي معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم، ص٢٩٩ -٣٠٠.

(٥٤) أنظر: محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٩، ص١٣١.

(٥٥) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، ج٩، ص٢٣.

(٥٦) أنظر: [سورة الانعام: ٧٣، [سورة الرعد: ١٤]، [سورة البقرة: ١٧٦]، [سورة النساء: ١٠٥]، [سورة المائدة: ٤٨].

(٥٧) محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٩، ص١٧١ -١٧٢.

(٥٨) أنظر: بهاء الدين الخرمشاهي، تأثير ثقافة العصر على القرآن الكريم، مجلة بينات، العدد٥، السنة الثانية، ص٩٥، و: أمير رضا الاشرفي، سلامة القرآن من وجود الافكار والعقائد الباطلة، مجلة المعرفة، العدد١٠٧، ص٤.

(٥٩) أنظر: أمير رضا الاشرفي، سلامة القرآن من وجود الافكار والعقائد الباطلة، مجلة المعرفة، العدد١٠٧، ص٤.

(٦٠) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير

الميزان، ج٢، ص٤١٢.

(٦١) أنظر: محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٢، ص٤١١ -٤١٢.

(٦٢) أنظر: محمد هادي معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم، ص١٩١ -١٩٣.

* * * * *

مصادر البحث

١- القرآن الكريم.

٢- الآملي، عبد الله، التسنيم في تفسير القرآن الكريم، الطبعة الرابعة، مركز نشر اسراء.

٣- الاحسائي، محمد علي، عوالي اللئالي، قم، تحقيق مجتبى العراقي، الطبعة الاولى، مطبعة سيد الشهداء، ١٩٨٥م.

٤- الاشرفي، أمير رضا، سلامة القرآن من وجود الافكار والعقائد الباطلة، مجلة المعرفة، العدد١٠٧.

٥- البابائي، علي أكبر، وعزيزي كيا، غلام علي، وروحاني راد مجتبى، مناهج تفسير القرآن، قم، الطبعة الرابعة، نشر مركز تحقيقات الحوزة والجامعة، ١٣٨٨ هـ ش.

٦- البلاغي، محمد جواد، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، قم، الطبعة الاولى، بدون تاريخ.

٧- البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار احياء التراث العربي، الطبعة الاولى، ١٤١٨هـ ق.

٨- الحويزي، عبد علي بن جمعة، تصحيح وتعليق هاشم الرسولي، قم المقدسة، مؤسسة اسماعيليان، الطبعة الرابعة، ١٤١٢ هـ ق.

٩- الخراساني، كاظم، كفاية الاصول، قم، الطبعة الرابعة، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٨هـ ق.

١٠- الخرمشاهي، بهاء الدين، تأثير ثقافة العصر على القرآن الكريم مجلة بينات، العدد٥، السنة الثانية.

١١- الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٢٠ هـ ق.

١٢- الرجبي، محمود، علم الانسان، انتشارات مؤسسة الامام الخميني،

الطبعة التاسعة عشر، ١٣٩٤هـ ش.
١٣- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن غامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التنزيل، بيروت، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ ق.
١٤- السلطاني، محمد، تأثير أصل العدل الإلهي، مجلة معرفة القرآن، السنة السادسة، العدد١١، ١٣٩٢هـ ش.
١٥- السلطاني، محمد، تأثير المؤلف على فهم الاثر (مع التأكيد على فهم القرآن)، مجلة معرفة القرآن، العدد ٥.
١٦- الشاهرودي، علي، دراسات في علم الأصول (تقريراً لابحاث السيد الخوئي)، قم، الطبعة الثانية، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، ٢٠٠٥م.
١٧- الشيرازي، ناصر مكارم، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، قم، الطبعة الاولى، منشورات مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ١٤٢١هـ ق.
١٨- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، تفسير القرآن، السعودية، الطبعة الاولى، مكتبة الرشد، ١٩٨٩م.
١٩- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة النشر الإسلامي.
٢٠- الطبرسي، احمد بن علي، الاحتجاج، النجف الاشرف، دار النعمان للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
٢١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، لبنان، الطبعة الاولى، مؤسسة الاعلمي، ١٩٩٥م.
٢٢- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، الطبعة الاولى، نشر دار المعرفة، ١٤١٢هـ ق.
٢٣- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان فى تفسير القرآن، الطبعة الأولى، دار احياء التراث العربي، بدون تاريخ.
٢٤- عزيزي كيا، غلام علي، الدلالة الإلتزامية ودورها في تفسير النص، مجلة معرفة القران، العدد١.
٢٥- الفياض، محمد اسحاق، محاضرات في اصول الفقه (تقريرات بحوث

السيد الخوئي)، قم، الطبعة الرابعة، نشر دار الهادي، ١٤١٧هـ ق.

٢٦- المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ م.

٢٧- المظفر، محمد رضا، اصول الفقه، قم، الطبعة الاولى، انتشارات الفيروزآبادي، بدون تاريخ.

٢٨- معرفة، محمد هادي، شبهات وردود، قم المقدسة، منشورات ذوي القربى، الطبعة ٤، ٢٠٠٩م.

٢٩- الهاشمي، محمود، بحوث في علم الأصول (تقريرات ابحاث السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره)، الطبعة الثانية، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٩٩٧م.